دراسة سهير القلماوي لألف ليلة وليلة

من بين الدراسات الموضوعية التي تناولتْ (ألف ليلة وليلة) دراسة د. سهير القلماوي في رسالتها للدكتوراه. ويرجع سبب الموضوعية إلى أنها اعتمدتْ المنهج العلمي في تحليل الليالي، كما أنها أفردتْ بعض الفصول عن أثر من أضافوا أو تدخلوا في صياغة الحكايات من ثقافات مختلفة. هذا بخلاف الكشف عن المصادر الرئيسية لليالي (نشرتْ دار المعارف المصرية الرسالة.

تعترف د. سهير في البداية بدور المستشرقين الذين كان لهم فضل التنبيه على وجود النص ثم ترجمته، ولأنّ أصل الحكايات كما ذكر ابن النديم في (الفهرست) بهلوي اسمه (هزار أفسان) أو (الألف خرافة)، ومن بينها قصص لها أصول هندية قديمة، ولأنّ النص الأصلي تمّتْ ترجمته عن الفارسية، لذلك اهتمّتْ المؤلفة بالرد على مزاعم من ادعوا أنّ الأصل عربي، خاصة وأنّ ظاهرة تحول الحيوان غريبة عن العرب وعن المعتقدات الإسلامية، ولكن بعد الترجمة تم التلاعب في النصّ الأصلي.

عن الطبعات العربية أكدت د. سهير على أنّ ((الليالي التي بين أيدينا قسمان منفصلان: قسم بغدادي يدخل فيه القصص الهندي أو الفارسي زمن العباسيين. وقسم مصري ما كتب في مصر وسوريا أيام المماليك وتحت حكم الأتراك)).

فيما يلي بعض المحاور التي تناولتها في رسالتها للدكتوراه:

1 ـ محور الاستبداد:

نظرًا لأنّ الطبعات العربية تمتْ كتابتها وإعادة صياغتها زمن الحكم العربي ثم المماليك والأتراك، لذا تأثر الرواة بما هو سائد، إذ كان الحكم في هذه العصور التي عاشت فيها الليالي حكمًا مستبدًا. في عصر المماليك كان استبدادًا قويًا سجّله التاريخ (ومع ذلك) صوّرته الليالي بصورة عكسية، فأشادتْ بعدل الرشيد وهذه الصورة المخالفة للواقع عن استبداد الحكم ((تخلق في الشعب نوعًا من الحذر الذي يُفضى إلى الجُبن)).

2 ـ محور الموقف من المرأة:

الدور الغالب للمرأة في الليالي هو دور العاشقة، وفى كل شخصيات هذا الدور فهي لابد أنْ تكون جارية ((سواء أكانت ملكة أو جارية مشتراه من السوق)) وصور خيانة المرأة لزوجها من أجل الوصول لحبيبها تنتشر في الليالي، بل إنّ مقدمة الليالي نفسها بدأتْ بأنْ ضبط الملك زوجته مع أحد (العبيد) في الفراش. وجاء في مقدمة الليالي بيتان من الشعر للتأكيد على

النظرة الدونية للمرأة ((لا تأمننّ على النساء/ ولا تثق بعهودهن/ يورين ودًا كاذبًا/ والغدر حشو ثيابهن)) والجارية (العاشقة) لابد أنْ تكون جميلة. وغلاء سعر الجواري في السوق رهنٌ بوفرة الجمال. وظهر تأثر كاتب الليالي بما كان يحدث في الواقع، فنظرًا لتأثير جمال وفتنة الجارية على الخلفاء المسلمين ((كان الخليفة كثيرًا ما ينزل عن جارية اشتراها إذا كانت تستطيع أنْ تؤثر فيه أثرًا يجعلها تطلب ما تريد، كما فعلتْ تودد مع الرشيد وكما فعلتْ الجواري الخمس مع المأمون)) وتنتشر ظاهرة (كيد الجواري) مثلما حدث في قصة (الوزراء السبعة) حيث زعمتْ جارية الملك أنّ ابنه راودها عن نفسها. وظهر تأثر كاتب الليالي بتراث الدين (العبري) عن قصة يوسف وامرأة العزيز. لذا تمثل الكتب (السماوية) في هذا الباب نوعيْن من المرأة: حواء التي طُرد آدم من الجنة بسببها، وامرأة العزيز التي سُجن يوسف لامتناعه عنها. والنوعان ممثلان في الليالي التي ورد فيها بيتان من الشعر للتأكيد على الطابع الديني هما ((بحديث يوسف فاعتبر/ مُتحذرًا من كيدهنّ/ أو ما ترى إبليس/ أخرج آدم من أجلهنّ)).

وأكثر ما تكيد المرأة فللوصول لحبيبها والتخلص من زوجها مع الإمعان في الفحش. وصورة أخرى من كيد المرأة للوصول للحبيب ما نجده في حب غير المسلمة للمسلم، ووصولها بالكيد حينًا وبالقتال حينًا آخر، فنجد في قصة (مريم الزناتية) امرأة (نصرانية) تحتال بعد أنْ أعلنتْ إسلامها لتصل لحبيبها ((حتى إنّ ملك الرومان لا يستطيع استخلاص ابنته، ولا من الرشيد نفسه الذي يضطر لحماية من أسلمتْ)) أما النساء المحاربات فهنّ ((نصارى يُسلمنَ أو يلدن مسلمًا. وإنْ كنّ من الجنيات فهنّ من الجنيات المؤمنات)) والمرأة (النصرانية) بعد أنْ أسلمتْ ((تنضم لجيش المسلمين وتحارب البطارقة من أجل المسلمين وتقتلهم. ومريم الزناتية تدخل في الإسلام وتحارب إخوتها من أجل الإسلام وتقتلهم. وأنّ الرشيد يحميها لإسلامها. فكل هذا (الجهاد) من أجل الإسلام وهذا الاعتناق لدين المسلمين يدل على أنّ القاص أراد أنْ يُدمج هؤلاء البطلات الغريبات أصلا في محيط حياته الاجتماعية، فجاء بما يُميزهنّ وهو الدين (المسيحي) فقلَبه وجعله الإسلام والقتال من أجل الإسلام ومن أجل المسلمين)).

وهنا كانت د. سهير على درجة عالية من الشجاعة الأدبية وهي تكتب عن التزوير الوارد في الليالي وعن الأصولية الإسلامية عند كاتبها.

ثم تنتقل المؤلفة إلى صورة أخرى من (تخاريف الليالي) عن ((المحاربات من الجن)) ولعلّ هذا ما جعل ابن النديم يكتب عن (الليالي) أنه ((كتاب غث بارد))، أكدتْ المؤلفة على أنّ صورة سوق العبيد كانت الصورة الحية أمام كاتب الليالي، حيث كان المشتري يمتحن الجارية في كل ما يتعلق بمزاياها المعروضة للبيع، وأنّ الوصف المادي لجسد المرأة كان من أهم أسباب رواج الليالي، وأنّ هذا الوصف تم حشره حشرًا وأنه ظاهر الافتعال.

وعن انتشار ظاهرة العبيد في الليالي ذكرتْ المؤلفة ((إنّ هذه الصورة مستمدة من الواقع الذي عرفته الدولة الإسلامية منذ نشأتْ. فقد دخل الرقيق (العبيد) بنوعيه الدولة الإسلامية بحكم الفتح (الغزو) وكانت الأمتان المغلوبتان (الروم والفرس) أرقى بكثير من الأمة الغالبة (العرب) فكان كل بيت (في الدولة الإسلامية) لا يخلو من العبيد، وعن امتهان البشر الذين أوقعهم سوء حظهم في منظومة العبودية، وصل الأمر لدرجة تأليف العديد من الكتب التي تتعرّض (لآليات وقواعد بيع العبيد) للتأكد من المواصفات المطلوبة، فكان هؤلاء البشر (نساء ورجال) يقفون عرايا لاختبار مقاييس القوة أو الجمال. ومن بين هذه الكتب كتاب (رسالة جامعة لفنون نافعة في شراء الرقيق وتقليب العبيد) تأليف أبى الحسن بن عبدون البغدادي وكتاب (القول السديد في تقليب الإماء والعبيد) تأليف أبى الثناء محمود العينتابي وقد اعتمد فيها كما ذكر في المقدمة على ورقات لابن الأكفاني اسمها (النظر والتحقيق في تقليب الرقيق) وأنّ عملية بيع العبيد كان يشهدها جمهور من المتفرجين بخلاف البائع (النخاس) والمشتري.

3 ـ محور الموقف من غير المسلمين:

احترمت المؤلفة لغة العلم عندما لاحظت سيطرة الدين الإسلامي على كاتب الليالي ((فجعل المسلمين في القصص إخوة على غيرهم، فالنصارى واليهود والمجوس كل هؤلاء مثلوا الشر كثيرًا في الليالي، ولا يكاد يوجد غير مسلم في القصة إلاّ وهو عنصر الشر فيها. بل إنّا لا نكاد نجد الخير ممثلا من غير دين المسلمين))، فمثلا نجد المجوسية أو النصرانية أو اليهودية التي تعلن إسلامها من أجل حبيبها المسلم وتقتل أباها الذي رفض الإسلام))، وأنّ ((كل بطل محبوب من أبطال القصص إما غير مذكور دينه وإما هو مسلم. أما النصارى فمكروهون وظفروا بجزء عظيم من الليالي كمعادين للمسلمين ومحاربين لهم. ويصل تعصب كاتب الليالي لدرجة لصق كل الأوصاف القبيحة بالنصارى بل والدخول في العقائد والقول بأنّ إنجيل لوقا محرف دون أي سبب درامي. وأنّ النصارى هم أصحاب الملة الكافرة ويُعظمون الصليب ويعبدون الأصنام. وترتفع الخرافة لدرجة أنّ فتاة نصرانية رأتْ في الحلم أنها تقضم تفاح الجنة فتعلن إسلامها، لذا كتبتْ المؤلفة أنّ كاتب الليالي عندما يتعرّض للأديان، فإنّ الحجج التي يسوقها ((ساذجة والإيمان كله ساذج))، وأنّ كاتب الليالي ((أظهر تعصبه للإسلام فقلما يجتمع مسلم ونصراني إلاّ والمسلم مثال الصدق والنصراني مثال للخداع والغش)) والتحريض على قتل المجوس والنصارى لأنهم عنصر الشر ((وكما انقسم عالم الإنس إلى مسلمين خيّرين وإلى غير مسلمين أشرار، فقد انقسم عالم الجن إلى جن مؤمنة (مسلمة) خاضعة لأمير المؤمنين الرشيد)) وأخرى كافرة شريرة.

وذكرت أنّ شعور التعصب (العرقي والديني) طغى على الحقائق، فالمعروف أنّ المسلمين ارتدوا عن القسطنطينية تاريخيًا. ويطغى الشعور الديني حتى يزج في التصوير أدق التفاصيل، فالنصارى يذبحون بعضهم إذا سكروا. وفي قصة (عمر النعمان) أصداء بعيدة مشوهة لبعض أحداث التاريخ وبعض نزعات (تعصب) قوية في تاريخ المسلمين ضد النصارى. وأخفقت في إمدادنا بشخصيات تاريخية حقيقية. وبأحداث تاريخية لها ما يؤيدها في الواقع.

4 ـ محور الخصوصية الثقافية لكل شعب:

عن الفرق بين النص المصري والنص البغدادي ردّتْ على الذين يدّعون أنّ الشعوب تتشابه في ثقافتها القومية فكتبتْ (من قال أنّ ذوق العامة في العراق هو ذوقهم في الشام أو مصر؟)، وعن النص المصري كتبتْ ((لقد أصبح ككتب المصريين التي لخصتْ العلم فردّته إلى الأقطار العربية متأثرًا بشخصيتها "المصرية")). وذكرتْ أنه إذا كان المصريون قد تأثروا بالعرب فإنّ هذا لم يمح مزاجهم الذي توارثوه، فأي بذور عربية (وافدة) ما لبث المصريون أنْ صبغوها بصبغتهم. لقد أحبّتْ عزيزة عزيزًا وهو ابن عمها، ولكنه حب على نحو مصري حديث بعيد كل البعد عن حب العربي لابنة عمه فهو أقرب إلى جو الجواري منه إلى جو الأحرار))، والبطل المصري إذا دخل العراق أخذ بيئته المصرية معه، والحياة الخاصة للتجار في الليالي سواء في منازلهم أو بين زوجاتهم وأولادهم فهي مصرية صميمة، ولوعيها بالخصوصية الثقافية لكل شعب كتبتْ ((فأغانينا الشعبية وقصصنا الشعبية بل حياتنا الشعبية بكل ما فيها من مظاهر الفن، مواد وفيرة يتجلى فيها الروح المصري، وتبرز فيها الشخصية المصرية الحية التي طاولتْ الزمن)).

من خلال دراستها المقارنة بين الأدب المصري القديم وقصص الليالي اكتشفت د. سهير الأصل المصري وأنّ تلك الأصول المصرية واضحة في بعض القصص مثل قصة (على الزئبق.

الدكتورة سهير القلماوي وهي تعد رسالتها عن (الليالي) جمعتْ بين لغة العلم ومعرفتها بتراث جدودنا وكذا وعيها بالتعريف العلمي لمفهوم (الثقافة القومية) التي يُنتجها الأميون قبل المُتعلمين، ومن هنا كان تفريقها بين (الشخصية المصرية) و(الشخصية العربية)، وذاك الوعي جاء نتيجة إدراكها للفرق بين الثقافتيْن القوميتيْن (المصرية والعربية).